

الذين استولى عليهم الشيطان

قال تعالى :

﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ [الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦]

وكمثل للانحراف عن سواء الفطرة ، ونقض لعهد الله المأخوذ عليها ، ونكوص عن آيات الله بعد رؤيتها والعلم بها .. ذلك الذي آتاه الله آياته ، فكانت في متناول نظره وفكره ، ولكنه انسلخ منها ، وتعرى عنها ولصق بالأرض ، واتبع الهوى ، فلم يستمسك بالميثاق الأول ، ولا بالآيات الهادية ، فاستولى عليه الشيطان ، وأمسى مطروداً من حمى الله ، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار ..

ولكن البيان القرآني المعجز لا يصوغ المثل هذه الصياغة ! إنما يصوره في مشهد حي متحرك ، عنيف الحركة ، شاخص السمات ، بارز الملامح ، واضح الإنفعالات ، يحمل كل إيقاعات الحياة الواقعة ، إلى جانب إيقاعات العبارة الموحية ..

إنه مشهد من المشاهد العجيبة ، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات .. إنسان يؤتاه الله آياته ، ويخلع عليه من فضله ، ويكسوه من علمه ، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع .. ولكن هاهو ذا ينسلخ من هذا كله انسلخاً ، ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه ، فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة ، انسلخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه .. أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان ؟ .. هاهو ذا ينسلخ من آيات الله ، ويتجرد من الغطاء الواقى ، والدرع الحامى ، وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى ، ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم ، فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق ، ولا يحميه منه حام ، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه .. ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بائس نكد .. إذا نحن